**المحاضرة 2**

**نظريات نشأة اللّغة الإنسانيّة**

الحديث عن نشأة اللغة يحيلنا إلى معضلة تاريخية أخرى أكثر تعقيدا وغموضا، هي بداية الإنسان الموغلة في القدم وقد اكتشفت بعض الحفريات آثارا تعود إلى أكثر من مليون سنة، رغم أن الديانات السماوية أعطت بعض الإجابات إلا أن البدايات بتفاصيلها تبقى غامضة.

وعليه فإن الأفكار التي تتناول نشأة اللغة نابعة عن نظريات وفرضيات، كل نظرية لها أدلتها ولو من باب الاحتمال. والأكيد في هذه المسألة هو غياب الحسم والاستقرار على معطيات يقينية تقدم حلا يحسن السكوت عليه.

أهم هذه النظريات:

1. **نظرية التوقيف:** ويذهب أنصار هذه النظرية إلى أن اللغة وحي من عند الله، دليلهم نقلي من كتب الديانات السماوية، ومن القرآن الكريم في قوله تعالى: "وعلم آدم الأسماء كلها".

من أنصارها الفيلسوف "هيراقليط"، الأب "لامي"، والفيلسوف "دوبونالد"، وأشهر علماء المسلمين الذين تبنوا هذه النظرية "ابن فارس"، ولكن من القدامى من أوّل النص القرآني السابق ولم يأخذه على ظاهره، وتبعه في ذلك آخرون، تأويله أن الله سبحانه أقدر (وضع فيه ملكة فطرية) الإنسان على وضع الألفاظ وإنتاج اللغة واستعمالها.

1. **نظرية الاصطلاح:** تذهب إلى أن اللغة تولدت بالتواضع والاتفاق بين جماعة من الناس للتواصل فيما بينهم، من أنصارها ابن جني وكثير من أئمة الاعتزال، ويقول ابن جني في هذه المسألة: "أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف".

وليس لهذه النظرية سند نقلي بل يستند دليلهم على الملاحظة والاستنتاج من الواقع، وهذا الدليل هو اختلاف اللغات. والدراسات اللغوية الحديثة تتبنى هذا المبدأ حين تتطرق إلى العلاقة بين الدال والمدلول وتقول عنها بأنها اعتباطية (علاقة لا تستند إلى علة أو حتمية ما).

1. **نظرية محاكاة أصوات الطبيعة:** وترى أن أصل اللغة محاكاة لأصوات الطبيعة (حيوانات أو ظواهر طبيعية)، وقد أشار ابن جني إلى حضور فكرة محاكاة أصوات الطبيعة في اللغة العربية كخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس...

ويذهب بعض اللغويين إلى أن هذه النظرية تتفق مع سنن النشوء والارتقاء التي تخضع لها الكائنات. ودليل هذه النظرية من مادة اللغة إذ لا تكاد تخلو لغة من ألفاظ تحاكي أصواتا طبيعية، لكن تبقى قاصرة عن تفسير وجود الألفاظ التي لا تدل على صوت أو تحاكي مسموعا، كالدالة الموجودات المادية ككتاب وشجرة...

1. **نظريات ثانوية:** هناك أفكار وتخمينات عالجت موضوع نشأة اللغة أقل شهرة من النظريات السابقة مثل:

* **نظرية الأصوات التعجبية العاطفية:** تذهب هذه النظرية إلى أن أول ما استعمل الإنسان الأول جهازه النطقي ليشكل أصواتا دالة استعمله للتعبير عن حالته النفسية العاطفية بصورة غريزية (فرح، حزن، وجع، استغراب...)، ويمكن وصفها بأنها أصوات حيوانية لأنها تماثل تلك الغريزية التي تصدر عن الحيوان تقريبا.
* **الاستجابة الصوتية للحركات العضلية:** وتفيد بأن اللغة الإنسانية بدأت بالمقاطع الطبيعية العفوية التي يتفوه بها الإنسان عندما يستعمل أعضاء جسمه في العمل اليدوي (يو هي هو)، (هي ها..).
* **نظرية محاكاة الأصوات لمعانيها:** ترى أن جرس الكلمة يدل على معناها، وقد أشار إليها ابن جني لما لاحظ علاقة مبررة بين صوت الكلمة ومعناها في "باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، والباب الثاني "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني". وتبقى هذه النظرية محدودة الصلاحية.

**التوفيق بين النظريات:**

مما سبق نتبين أن كل نظرية من النظريات التي تناولت نشأة اللغة فسرت جزءا من في اللغة مما يجعل تكاملها أفضل من تفاضلها. وفيما يلي مقاربة بين تطور اللغة عند الطفل، وتطورها عند الإنسان من فجر وجوده إلى نضج اللغة عنده.

|  |  |
| --- | --- |
| نمو الّلغة عند الطفل | تدرج نشأة اللّغة عند الإنسان |
| * يولد الطفل مهيأ فطريا لإنتاج واستعمال اللغة * أول ما يطلقه الطفل أصوات انفعالية (الجوع، الفرح، الألم..) * تظهر عنده محاكاة أصوات الحيوانات والأشياء التي تصدر صوتا * يستعمل الطفل كلمات دالة على الذوات الحسية * لغة الطفل في الأول تبدو خالية من الصرف والاشتقاق وربط عناصر الجملة | * نظرية التوقيف حسب تأويل ابن جني * مضمون نظرية الأصوات التعجبية * نظرية المحاكاة * بداية مرحلة التواضع والاصطلاح * الإنسان في رحلة تطور لغته استعمل كلمات منعزلة فترة ثم ارتقى شيئا فشيئا لربطها في علاقات (التركيب) |

* **ملاحظة:** الطفل في مسيرة تطور لغته يستهلك أعواما محدودة من عمره للانتقال من مرحلة إلى أخرى، أما الإنسان في رحلة تطوره اللغوي قد يستهلك مئات السنين وربما آلاف السنين أو أكثر للانتقال من مرحلة إلى أخرى.